﴿ عذاب الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى وثواب المؤمنين المخبتين إلى ربّهم ﴾

الآيات (١٧ ـ ٢٤)

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

تسأل الآية الكريمة في إنكار : أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه جلّ وعلا وحجّةٍ واضحةٍ وهو محمّد بن عبد الله ﷺ كمن ليس كذلك ؟ ومن البيّن أنّ الكلام على الحذف . وهذا الذي هو على حجّةٍ بيّنةٍ من ربّه جلّ وعلا يتلوه ويتبعه شاهدٌ منه جلّ وعلا وهو القرآن الكريم . وثمّة شاهدٌ للمصطفى ﷺ قبل القرآن الكريم وهو الكتاب الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السّلام إماماً لبني إسرائيل يأتمّون به ورحمةً من الله تعالى بهم . وهذا الكتاب هو التّوراة . والمعروف أنّ الإنجيل متمّمٌ للتّوراة وبذلك يدخل الإنجيل الذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام في الكتاب الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السّلام . إنّ أتباع كلٍّ من الرّسولين الكريمين والنّبيّين العظيمين يؤمنون بالقرآن الكريم لأنّ كتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضاً . وإنّ الإيمان بالقرآن الكريم تصديقٌ لمحمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . أمّا من يكفر بالقرآن الكريم وبالرّسول العظيم من الأحزاب ، وهم المتحزّبة على مللهم[1] وفيهم بطبيعة الحال كافرو اليهود والنّصارى[2] فالنّار موعده . وفي المقابل الجنّة موعد الذين يؤمنون بالقرآن الكريم وبخير الأنام ﷺ . في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة يهوديٌّ أو نصرانيٌّ ثمّ لا يؤمن بي إلّا دخل النّار[3] .

وتنهي الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يكون في شكٍّ من القرآن الكريم . إنّ القرآن الكريم هو الحقّ من ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون ولا حول ولا قوّة إلّا بالله تعالى العليّ العظيم .

وبشأن الحذف يقول الطّبريّ[4] : « وفي الكلام محذوفٌ قد ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٣/١٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٠/٢ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/١٢ .

ذكر عليه منه وهو : أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً كمن هو في الضّلالة متردّد لا يهتدي لرشد ولا يعرف حقّاً من باطل ولا يطلب بعمله إلّا الحياة الدّنيا وزينتها » .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

ويقول الأشهاد : يعني الملائكة والأنبياء الذين شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون وهم جمع شاهد مثل الأصحاب الذي هو جمع صاحب[1] .

في أسلوب الاستفهام تسأل الآية الكريمة الأولى : مَنْ أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذباً بنسبة الصّاحبة والولد والشّريك إليه جلّ وعلا . والمعنى أنّه لا أحد أظلم من هذا المفتري على الله تعالى الكذب . إنّ أولئك يُعْرَضون على ربّهم جلّ وعلا يوم القيامة ويقول الأشهاد من الملائكة والأنبياء هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم جلّ وعلا وبدّلوا نعمة الله تعالى كفراً وبادلوا الإحسان بالكفران . ألا لعنة الله تعالى على الظّالمين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها وصرفوها عن مستحقّها ، والطّرد من رحمة الله تعالى واقعٌ على الكافرين .

والآية الكريمة الثّانية تبيّن الأسباب التي استحقّ الظّالمون من أجلها الإبعاد من رحمة الله تعالى . إنهم هم الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله تعالى ويبغون السّبيل معوجّة والطّريق ملتوية ، وهم بالآخرة هم كافرون ، وللبعث والحساب والجزاء منكرون .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٣ .

أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

لا جَرَم : أصل الجَرْم ، بفتح الجيم ، قطع الثّمرة عن الشّجر ، ورجلٌ جارم[1] واستعير ذلك لكلّ اكتساب مكروه[2] يقال : جَرَم النّخل جَرْماً واجترمه : خَرَصه وجَرّه[3] وجَرَم إليهم وعليهم جريمةً وأجرم : جنى جناية[4] والجُرْم بضمّ الجيم : مصدر الجارم الذي يَجْرِم نفسه وقومه شرّاً[5] والجارم : الجاني . والمُجْرِم : المُذْنِب[6] ويقول العرب : فلانٌ جريمة أهله : أي كاسبهم[7] ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، لا يحملنّكم بغض قوم أن تعتدوا[8] ولا يكسبنّكم بغضُ قومٍ أن تعتدوا[9] وجرم يَجْرِم واجترم : كسب[10] وأصل : لا جَرَم ، مِنْ جَرَمْتُ أي كسبت الذّنب[11] ولا جَرَم أي لا بدّ ولا محالة ، وقيل : معناه حقّاً[12] قال سيبويه : فأمّا قوله تعالى : لا جرم أنّ لهم النّار ، فإنّ جَرَم عَمِلَتْ لأنّها فعل ، ومعناها لقد حقّ أنّ لهم النّار . وقول المفسّرين : معناها حقّاً أن

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جرم » ٩١ وانظر لسان العرب : « جرم » .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جرم » ٩١ .
(٣) لسان العرب : « جرم » .
(٤) لسان العرب : « جرم » .
(٥) لسان العرب : « جرم » .
(٦) لسان العرب : « جرم » .
(٧) لسان العرب : « جرم » .
(٨) لسان العرب : « جرم » .
(٩) لسان العرب : « جرم » .
(١٠) لسان العرب : « جرم » .
(١١) لسان العرب : « جرم » .
(١٢) لسان العرب : « جرم » .

لهم النّار يدلّك على أنّها بمنزلة هذا الفعل إذا مَثّلْتَ ، فجَرَم عملت بَعْدُ في أنّ . والعرب تقول : لا جرم لآتينّك ، لا جرم لقد أحسنتَ ، فتراها بمنزلة اليمين ، وكذلك فسّرها المفسّرون حقّاً أنّهم في الآخرة هم الأخسرون[1] قال الفرّاء : لا جَرَم كلمةٌ كانت في الأصل بمنزلة لا بدّ ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتّى تحوّلت إلى معنى القَسَم وصارت بمنزلة حقّاً ، فلذلك يجاب عنها باللّام كما يجاب بها عن القَسَم ، ألا تراهم يقولون لا جَرَم لآتينّك[2] .

تبيّن الآيات الكريمات عذاب أولئك الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى .

إنّ أولى الآيات الكريمات تقرّر أنّ أولئك الظّالمين لم يكونوا لحظةً من اللحظات معجزين الله تعالى في الأرض وفائتينه بالهرب في الحياة الدّنيا وما كان لهم من دون الله تعالى من أولياء ينصرونهم ويصرفون السّوء عنهم . إنّهم سيضاعف لهم العذاب بسبب كفرهم من ناحيةٍ وصدّهم عن سبيل الله تعالى من ناحيةٍ أخرى . وإنّهم ما كانوا في الحياة الدّنيا مستعدّين لسماع دعوة الحقّ سماع قبول بسبب بغضهم الفطري لدعوة الحق ، وما كانوا يبصرون نور الهداية بسبب عمى بصائرهم والعياذ بالله تعالى .

وإنّ الآية الكريمة الثّانية التي تبدأ على غرار الآية الكريمة الأولى باسم الإشارة : « أولئك » الدّالّ على البعد تأكيداً لمعنى لعنة الله تعالى عليهم ، تقرّر أنّ الظّالمين هم الذين خسروا أنفسهم بدخول النّار وما أفدحها من خسارة ، وضلّ عنهم وغاب ما كانوا يفترونه من الشّركاء لله تعالى في العبادة .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة : ﴿ لا جرم أنّهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ تقول : حقّاً ولا محالة أنّهم في الآخرة هم الأخسرون . ويلاحظ مجيء « الأخسرون » وليس « الخاسرون » . إنّهم هم الأخسرون من سواهم وهم تبعاً لذلك الأكثرون عذاباً .

---

(١) لسان العرب : « جرم » وانظر معاني القرآن للفرّاء ٨/٢ .

(٢) لسان العرب : « جرم » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وأخبتوا إلى ربّهم : أنابوا إلى ربّهم وخافوا وخشعوا وتواضعوا واطمأنّوا[1] والخَبْت : المطمئنّ من الأرض . وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد . ثمّ استُعْمِل الإخبات استعمال اللّينِ والتّواضع[2] .

تبيّن الآية الكريمة الأولى ثواب الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وأنابوا إلى ربّهم جلّ وعلا وذلّت أعناقهم ، وخضعت نفوسهم ، واطمأنّت قلوبهم . إنّ أولئك هم أصحاب الجنّة هم فيها خالدون . ومن البيّن جمع الآية الكريمة في نسق بين الإيمان وعمل الصّالحات والتّواضع لله تعالى . ومن البيّن أنّ عمل الصّالحات دليلٌ على الإيمان ، وأنّ الإخبات بمعنى التّواضع ولين القلوب وخشوعها ثمرة الإيمان وعمل الصّالحات .

وتنفي الآية الكريمة الأخرى أن يستوي مثل الفريق الكافر أعمى البصيرة الأصمّ عن سماع دعوة الحقّ ، ومثل الفريق المؤمن ذي البصيرة النّيّرة والأذن الواعية . وفي القول : ﴿ أفلا تذكّرون ﴾ تحثّ الآية الكريمة على الإفادة من الموعظة والذّكرى .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٦ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خبت » ١٤١ .

« نوحٌ عليه السّلام يدعو قومه
إلى عبادة الله تعالى وحده
لا شريك له »
الآيات (٢٥ ـ ٣٥)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَلَّا
تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

مبين : يبين لكم عمّا أُرْسل به إليكم من أمر الله ونهيه[1] .

إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم : جعل الأليم من صفة اليوم وهو من صفة العذاب إذ كان العذاب فيه كما قيل : وجعل اللّيل سكناً . وإنّما السّكن من صفة ما سكن فيه دون اللّيل[2] .

نوحٌ عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام[3] وبهذه المناسبة نحن نستذكر مثل هذه الآية من سورة البقرة[4] قال تعالى : ﴿ كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه . والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾ ومعنى القول : ﴿ كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث الله النّبيّين ﴾ كان النّاس أمّةً واحدةً مسلمةً لله ربّ العالمين فاختلفوا بأن آمن بعضٌ وكفر بعض[5] وهذا المحذوف نبّهت عليه هذه الآية الكريمة من سورة يونس[6] قال تعالى : ﴿ وما كان النّاس إلّا أمّةً واحدةً فاختلفوا ﴾ وبعد أن تفرّقت ببني آدم السّبل عن سبيل الله تعالى ظهرت الحاجة لإرسال رسولٍ يعيد الأمّة إلى جادّة الصّواب بإذن الله تعالى . وأوّل الرّسل نوحٌ عليه السّلام الأب الثّاني للبشريّة . وآخر الرّسل محمّد بن عبد الله ﷺ .

وإنّ أولى الآيتين الكريمتين تقرّر أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل نوحاً عليه السّلام إلى قومه بأنّه عليه الصّلاة والسّلام نذيرٌ لقومه بين يدي عذاب الله تعالى الشّديد ، بيّن الإنذار واضحه بأنّ من أعرض عن ذكر الله تعالى فإنّ له معيشةً ضنكاً في الأولى والآخرة .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٧ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/١٧ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/٤٤٢ .
(٤) الآية ٢١٣ .
(٥) انظر مثلاً الجلالين .
(٦) الآية ١٩ .

وإنّ الآية الكريمة الأخرى تبيّن الجوهر الواحد لدعوات كلّ الرّسل من الله تعالى بألّا يعبدوا إلّا الله تعالى وحده لا شريك له وأن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة .

ويجمع نوحٌ عليه السّلام في دعوته بين جوهر الدّعوة وبين اليوم الآخر . وبذلك يجمع عليه الصّلاة والسّلام في دعوته بين الأولى والآخرة ، بين الأولى حياة العمل وقد عرفنا شرطي قبول العمل بإذن الله تعالى وهما صواب العمل بمقياس الإسلام والإخلاص فيه بأن يراد به وجه الله تعالى وحده لا شريك له ، وبين الآخرة وذلك في القول : ﴿ إنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ أليم ﴾ إنّه عليه السّلام يخاف على قومه وهم كافرون في مجموعهم عذاب يومٍ أليم ، وهو يوم القيامة . والمعروف أنّه ما آمن مع نوحٍ عليه السّلام إلّا قليل مع أنه عليه السّلام ظلّ يدعو قومه ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً .

فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

الملأ : الكبراء من قوم نوحٍ وأشرافهم(١) .

أراذلنا : سِفْلتنا من النّاس دون الكبراء والأشراف(٢) .

بادي الرّأي : أي في أوّل بادئ الرّأي(٣) بالهمز وتركه ، أي ابتداءً من غير تفكير فيك . ونصبه على الظّرف أي وقت حدوث أوّل رأيهم(٤) إنّ همز بادئ بمعنى أوّل الرّأي(٥) وفيما يبدأ به من الرّأي(٦) وإنّ عدم الهمز ﴿ بادي الرّأي ﴾ بمعنى ظاهر الرّأي(٧) .

إنّ الأشراف والكبراء الذين كفروا من قوم نوحٍ عليه السّلام قالوا له عليه الصّلاة والسّلام ما نراك إلّا بشراً مثلنا ولست مَلَكاً من الملائكة فكيف تنفرد بيننا بالرّسالة ! وما نراك

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/١٧ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/١٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٤٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) معاني القرآن للفرّاء ٢/١١ .
(٦) معاني القرآن للأخفش ٢/٣٥٢ .
(٧) معاني القرآن للفرّاء ٢/١١ وللأخفش ٢/٣٥٢ .

اتّبعك يا نوح إلا الذين هم أراذلنا وسِفْلتنا وضعفاؤنا وفقراؤنا الذين يقبلون بادئ الرّأي وأوّله دون تفكير ولا رويّة ، ويستجيبون لكلّ ناعق ، وما نرى لكم علينا من فضلٍ فتسبقونا بنبوّة أو إيمان ، بل نعتقد أنّكم كاذبون في كلّ ما تقولونه وتدعون إليه .

ومن البيّن عمى القوم الذي ليس وراءه من مزيد ، لأنّ كلّ المرسلين هم من البشر ، ولأنّ الرّجال يُعْرَفون بالحقّ وليس العكس ، وقد اتّضح الحقّ للفقراء والضّعفاء فبادروا إلى الإيمان ولم يتردّدوا ، ولأنّ الفضل إنّما هو من الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

قال نوحٌ عليه السّلام لقومه الذين كذّبوه يا قوم أخبروني إن كنت على حجّةٍ بيّنةٍ من ربّي جلّ وعلا وحكمةٍ بالغةٍ منه تعالى وآتاني رحمةً من عنده جلّ وعلا تمثّلت في النّبوّة التي اصطفاني جلّ وعلا بها ودعوتكم إليها فعمّيت عليكم وخفيت عنكم بسبب عمى بصائركم والقلوب التي في صدوركم . أنلزمكموها ونجبركم على قبولها وأنتم لها كارهون ولدين الإسلام مبغضون وعن نور الهداية منصرفون ! إنّا نملك البلاغ والدّعوة إلى الله تعالى ولا نملك ما وراء ذلك من التّوفيق للهداية الذي لا يملكه إلّا ربّ العباد .

ومن البيّن أنّ الكلام على لسان نوحٍ عليه السّلام ذو علاقةٍ بالقول المتعلّق به عليه السّلام في الآية الكريمة السّابقة على لسان قومه : ﴿ ما نراك إلّا بشراً مثلنا ﴾ . إنّه عليه الصّلاة والسّلام بشرٌ مثلهم ولكنّ الله تعالى يمنّ على من يشاء من عباده ، وقد منّ جلّ وعلا عليه بنعمة الرّسالة كبرى نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده المصطفَيْنَ الأخيار .

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ

أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

الآيات الكريمات الثّلاث استمرار للآية الكريمة السّابقة التي أجاب فيها نوحٌ عليه السّلام قومه فيما يتّصل بذاته الشّريفة عليه الصّلاة والسّلام . وإنّ هذه الآيات الكريمات الثّلاث تتعلّق بشخصه الكريم عليه الصّلاة والسّلام وبأتباعه المؤمنين الفقراء الضّعفاء ردّاً على الملأ الذين كفروا الذين تعرّضوا لفقراء المؤمنين بالإيذاء كما تعرّضوا لنوحٍ عليه السّلام بالإيذاء .

إنّه بقصد استمالة قلوب الملأ الذين كفروا وعدم إثارة حفائظهم يكرّر نوحٌ عليه السّلام نداءه : « يا قوم » مرّة ومرّة . والحقيقة أنّنا أمام دروسٍ في أدب الدّعوة إلى الله تعالى يلقيها نوحٌ عليه السّلام من منبر القرآن الكريم . إنّه عليه السّلام ينادي قومه الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى قائلاً : إنّه لا يسألهم على دعائهم إلى الله تعالى أيّ مالٍ أو مقابل . إنّ أجره على الله تعالى وحده لا شريك له .

وبشأن فقراء المؤمنين الذين طلب الملأ الذين كفروا أن يطردهم هو يؤكد أنّه لن يطردهم من مجلسه بحالٍ من الأحوال ولن يقصيهم عن حضرته . ومن البيّن وجه الشّبه بين دعوة الملأ الذين كفروا من قوم نوحٍ عليه السّلام وبين دعوة الملأ الذين كفروا من قوم محمّدٍ ﷺ . ويستمرّ نوحٌ عليه السّلام في حديثه عن فقراء المؤمنين بأنّهم ملاقو ربّهم جلّ وعلا فمحاسبهم على حقيقة نواياهم أمّا هو عليه السّلام فليس له سوى الظّاهر لذا هو يقرّب الذين آمنوا منه ويرفض طلب الملأ الذين كفروا بطردهم لأنّ هؤلاء الكافرين يجهلون ما يجب عليهم من حقٍّ لله تعالى بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له لذا هم يكفرون من ناحية ، ويطلبون هذه الأمور السّخيفة التي تدلّ على سفههم وحمقهم من ناحيةٍ أخرى .

ولمّا كان نوحٌ عليه السّلام عبداً مأموراً وقد نهاه الله تعالى عن طرد فقراء المؤمنين وضعفائهم كما نهى محمّداً ﷺ فإنّه في الآية الكريمة الثّانية يسأل قومه منادياً لهم قائلاً : ﴿ من ينصرني من الله إن طردتهم ﴾ ومن الذي يدفع عنّي عذابه جلّ وعلا إن ظلمت هؤلاء المؤمنين الصّادقي الإيمان فيما يبدو لي ؟ أفلا تتذكّرون وتتفكّرون وتعقلون !

وفي الآية الكريمة الثّالثة يواصل عليه الصّلاة والسّلام حديثه عن نفسه وعن فقراء المؤمنين وضعفائهم . إنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس عنده خزائن الله تعالى التي ينفق منها جلّ وعلا والتي لا تنفد إنّما هو عبدٌ مملوكٌ لخالقه ورازقه جلّ وعلا . وإنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يعلم الغيب لأنّ الله تعالى وحده لا شريك له هو الذي يعلم الغيب أمّا نوحٌ عليه السّلام فَبَشَرٌ لا يعلم إلّا ما علّمه الله تعالى . وإنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يقول إنّه عليه الصّلاة والسّلام ملكٌ من الملائكة ولكنّه بشر كما يقولون : ﴿ ما نراك إلّا بشراً مثلنا ﴾ ولكنّ الله تعالى اصطفاه بنعمة الرّسالة . أمّا فقراء المؤمنين وضعفاؤهم الذين تزدريهم أعين الملأ ، وتحتقرهم نفوسهم فإنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يقول إنّ الله سبحانه وتعالى لن يؤتي أولئك الفقراء الضّعفاء خيراً لأنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بما في أنفسهم من حقيقة الإيمان وسيجازيهم على حقيقة ما في أنفسهم لأنّ الله تعالى وحده لا شريك له هو الذي يعلم حقائق القلوب ودخائل النّفوس . إنّي لو قلت للمؤمنين قولاً يؤذيهم دون حجّةٍ لديّ أتّكئ عليها إنّي إذاً لمن الظّالمين الذين يضعون الأمور في غير مواضعها . إنّي لا أجرؤ على أن أقول للمؤمنين شيئاً دون علمٍ ، فكيف أطردهم لمجرّد ازدراء أعينكم لهم ونفور قلوبكم منهم .

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾

قال الملأ الذين كفروا من قوم نوحٍ عليه السّلام : « يا نوح » هكذا في طريقةٍ فظّة . يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وخاصمتنا فأكثرت خصومتنا فأتنا بما تعدنا من العذاب ، وذلك في القول على لسانه كما مرّ بنا في الآية الكريمة السّادسة والعشرين : ﴿ إنّي أخاف عليكم من عذاب يومٍ أليم ﴾ إن كنت صادقاً في وعيدك وأنّك مُرْسَلٌ من ربّ العالمين .

ويلاحظ أنّ القول : « فأتنا » هو الذي يجري على ألسنة الملأ . والمعروف أنّ جملة : « أتى » تُسْتَعْمَل دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ بعكس جملة : « جاء » إنّ الملأ الذين يستعجلون العذاب ويستهزئون بنوحٍ عليه السّلام يستبعدون وقوع العذاب ولهذا يجيء على لسانهم القول : « فأتنا بما تعدنا » .

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾

تجاه حمق الملأ الذين كفروا وسفههم وقد استعجلوا العذاب بدلاً من التّوبة والاستغفار وسؤال الله تعالى رحمته الواسعة التي سبقت عذابه وغضبه يقول لهم نوحٌ عليه السّلام : إنّ الذي يستطيع أن يأتيهم بالعذاب هو الله تعالى وحده لا شريك له إن شاء أن يعذّبهم . وهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه وقتاً من الأوقات ولا لحظةً من اللّحظات . وما أقوى الشّبه بين الموقفين للكافرين من نوحٍ عليه السّلام أوّل المرسلين ومن محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم المرسلين وأشرف النّبيّين . وإنّا لنستذكر في هذه المناسبة قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنعام[1] خطاباً لمحمّد بن عبد الله ﷺ وتليقيناً له ما يقوله للملأ الذين كفروا من قومه والذين طلبوا منه عليه الصّلاة والسّلام أن يطرد المؤمنين : ﴿ قل إنّي على بيّنةٍ من ربّي وكذبتم به . ما عندي ما تستعجلون به . إنِ الحكم إلّا لله يقصّ الحقّ وهو خير الفاصلين . قل لو أنّ عندي ما تستعجلون به لَقُضِيَ الأمر بيني وبينكم . والله أعلم بالظّالمين ﴾ .

وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

يستمر نوحٌ عليه السّلام في دعاء قومه إلى الله تعالى وفي تبيين الحدود التي يقف عندها عليه الصّلاة والسّلام ولا يستطيع أن يتعدّاها . إنّه عليه الصّلاة والسّلام يستطيع أن يدعو قومه وينصح لهم وهذا منتهى ما يستطيع أن يفعله عليه الصّلاة والسّلام مِنْ أجل قومه . وكلّ هذه الجهود التي يبذلها عليه الصّلاة والسّلام تقف عند ما يسمّى بهداية الدّعوة والإرشاد . أمّا هداية التّوفيق لاعتناق دين الإسلام فإنّها عمل ربّ العباد وحقّه جلّ وعلا وحده لا شريك له . إنّ نوحاً عليه السّلام يبيّن لهم أنّ نصحه لهم رغم اجتهاده فيه لن ينفعهم إن كان الله تعالى يريد أن يغويهم . إنّه جلّ وعلا ربّهم وخالقهم ومالكهم وإليه يرجعون يوم القيامة .

والمعروف بنصّ القرآن الكريم أنّ من جاهد في الله تعالى وأخلص في البحث عن الحقّ هداه الله تعالى سبله جلّ وعلا ، وأنّ من أعرض عن ذكره جلّ وعلا فإنّ له معيشةً ضنكاً في الأولى والآخرة ويجعل الله تعالى صدره ضيّقاً حرجاً غير مستعدّ لاستقبال نور الهداية . جاء في

---

(١) الآية ٥٧ ، ٥٨ .

سورة العنكبوت[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا . وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وجاء في سورة طه[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً[3] ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً . قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسَى ﴾ وجاء في سورة الأنعام[4] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرِد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حَرَجاً كأنّما يصّعّد في السّماء . كذلك يجعل الله الرّجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربّك مستقيماً . قد فصّلنا الآيات لقومٍ يذّكّرون ﴾ .

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

فعليّ إجرامي : فعليّ إثمي في افترائي ما افتريت على ربّي دونكم لا تؤاخذون بذنبي ولا إثمي[5] .

وأنا بريءٌ ممّا تجرمون : وأنا بريءٌ ممّا تذنبون وتأثمون بربّكم من افترائكم عليه . ويقال منه : أجرمت إجراماً ، وجرمت أجرم جُرْماً[6] .

كان في الآية الكريمة الثّالثة عشرة من السّورة الكريمة تحدٍّ بعشر سورٍ من القرآن الكريم أن يأتي الكافرون بمثل عددها سوراً مفتريات فعجزوا ، لأنّ القرآن الكريم موحًى به من ربّ العالمين . ثمّ تحدّثت الآيات الكريمات عن عذاب المكذّبين الكافرين وثواب المصدّقين المؤمنين . ثمّ كان الحديث عن دعوة نوحٍ عليه السّلام إلى توحيد الله تعالى . وما أقوى الشّبه بين معاناة كلٍّ من الرّسولين الكريمين من قومهما المكذّبين . وقد جاءت هذه المعلومات عن طريق القرآن الكريم الموحى به من ربّ العالمين ، وقد جاءت قصّة نوح عليه السّلام وهي من الأمور الغيبيّة التي لم يكن يعلمها المصطفى ﷺ ولا قومه من قبل الإيحاء بالقرآن الكريم كما

---

(١) الآية ٦٩ .
(٢) الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦ .
(٣) ضنكاً : ضيّقة .
(٤) الآية ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٢٠/١٢ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٢٠/١٢ .

نصّت على ذلك الآية الكريمة التّاسعة والأربعون من السّورة الكريمة . فهل كفّار مكّة مستمرّون على كفرهم وتكذيبهم وإنكارهم أن يكون القرآن الكريم موحًى به من ربّ العالمين أم أنّهم سيغيّرون من موقفهم ؟ إنّ هذه المعاني توحي بها الآية الكريمة التي نحن بصددها ، والتي تجيء في أثناء الحديث عن قصّة نوح عليه السّلام مع قومه ، وفي نهاية الجزء من الحديث عن دعوة نوح عليه السّلام قومه إلى الله تعالى ، وبين يدي الحديث عن غرق الكافرين من قوم نوح عليه السّلام بالطّوفان .

والحقيقة إنّ حديث الآية الكريمة عن تكذيب القوم للقرآن الكريم وعن موقف المصطفى ﷺ يتمشّى كلّ ذلك مع طبيعة المرحلة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة في مكّة المكرّمة حينما كانت الكلمة للكافرين وحينما كان الكافرون يسومون المؤمنين سوء العذاب .

إنّ الآية الكريمة تقول : بل أيقول كفّار مكّة إنّ محمّداً ﷺ قد افترى القرآن الكريم بعد كلّ هذه الأنباء بالغيب في أسلوب القرآن الكريم المعجز مبنًى ومعنًى ! قل يا محمّد إن افتريت القرآن الكريم من عند نفسي وزعمت أنّه موحًى به من ربّ العالمين فعليّ إجرامي ووزر افترائي وسيقع عليّ وحديَ العقابُ من الله تعالى . وفي الوقت ذاته أنا بريءٌ ممّا تجرمون وممّا تظلّون ترتكبونه من آثام في حقّي بتكذيبكم لي وزعمكم أنّي افتريت القرآن الكريم . إنّ العقاب من الله تعالى سيقع عليكم وحدكم دون سواكم كما وقع على مكذّبي نوح عليه السّلام وكما يتبيّن من الآيات الكريمات التّاليات .

« نجاة نوحٍ عليه السّلام والمؤمنين من الطّوفان وغرق الكافرين »
الآيات (٣٦ ـ ٤٩)

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

فلا تبتئس : عن ابن عبّاس : فلا تحزن[1] .

مكث نوحٌ عليه السّلام يدعو قومه ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً . قال تعالى[2] : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً فأخذهم الطّوفان وهم ظالمون ﴾ واستعجل قومه عذاب الله تعالى استهزاءً واستكباراً واتّهموه عليه الصّلاة والسّلام بالجنون وزجروه ونهروه فاستغاث بربّه جلّ وعلا . قال تعالى[3] ﴿ كذّبت قبلهم قومُ نوحٍ فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدُجِر . فدعا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصر ﴾ وأوحى الله تعالى إليه أنّه لن يؤمن من قومه إلّا من قد آمن فلا تحزن لما سيحلّ بهم من عذاب فدعا نوحٌ عليه السّلام على قومه . قال تعالى[4] : ﴿ وقال نوحٌ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دَيّارا . إنّك إن تذرهم يُضِلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّارا ﴾ .

إنّ الآية الكريمة التي نحن بصددها تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد أَوْحَى إلى نوحٍ عليه السّلام بأنّه لن يؤمن من قومه عليه السّلام بعد دعوتهم تلك المئات من السّنين إلّا من قد آمن : ﴿ وما آمن معه إلّا قليل ﴾[5] فعليه ﷺ ألّا يبتئس بما كانوا يفعلون من تكذيبٍ وآثام ، وألّا يحزن لما سيحلّ بهم من عذابٍ أليمٍ في هيئة الطّوفان .

ولمّا كان إغراق الله تعالى الكافرين قد اقترن به إرادة الله تعالى إنجاء المؤمنين من الغرق فقد أوحى الله تعالى إلى نوحٍ عليه السّلام أن يصنع السّفينة وكان ذلك في الآية الكريمة التّالية .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٢١/١٢ .

(٢) سورة العنكبوت ١٤ .

(٣) سورة القمر ٩ ، ١٠ .

(٤) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) سورة هود ٤٠ .

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

الفلك : السّفينة[1] .

بأعيننا ووحينا : بعين الله ووحيه كما يأمرك[2] عن ابن عبّاس : قوله : واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، وذلك أنّه لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله إليه أن يصنعها على مثل جؤجؤ الطّائر[3] والجؤجؤ من الطّائر والسّفينة : الصّدر . على وزن هدهد[4] .

بعد أن أوحى الله تعالى إلى نوح بأنّه لن يؤمن من قومه عليه السّلام إلّا من قد آمن أمره الله تعالى أن يصنع السّفينة بمرأى منه تعالى ورعايةٍ وحفظ ، بوحي منه جلّ وعلا وإلهامٍ وتسديد ، ونهاه جلّ وعلا أن يخاطبه عليه السّلام في الذين ظلموا من قومه الذين حقّ عليهم العذاب . إنّهم مغرقون بالطّوفان .

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

ويصنع نوحٌ عليه السّلام السّفينة امتثالاً لأمر ربّه جلّ وعلا وكلّما مرّ عليه جماعةٌ من كبراء قومه سخروا منه وقالوا كنت نبيّاً وصرت نجّاراً وتعمل سفينةً في البَرّ ! قال نوحٌ عليه السّلام للمستهزئين من قومه إن تسخروا منّا اليوم فإنّا نسخر منكم غداً كما تسخرون منّا اليوم وذلك حينما تغرقون وننجو بإذن الله تعالى . فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه من ربّه جلّ وعلا عذابٌ مقيم . إنّ غرق الكافرين عذابٌ لهم وخزيٌ في الأولى ، وإنّ عذاب الكافرين المقيم في نار جهنم خزيٌ لهم في الآخرة .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٢١/١٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٢١/١٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٢١/١٢ .

(٤) انظر مثلاً القاموس المحيط : « الجأجاء » .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

وفار : عن ابن عبّاس : فار نبع[١] قال أبو جعفر : وفوران الماء سورة دفعته . يقال منه : فار الماء يفور فوراً وفوراناً وذاك إذا سارت دفعته[٢] .

وفار التّنّور : عن ابن عبّاس : التّنّور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتّى فار الماء من التّنانير التي هي مكان النّار صارت تفور ماءً . وهذا قول جمهور السّلف وعلماء الخلف[٣] ورجّح ابن جرير الطّبريّ أن يكون التّنّور هو الذي يُخْبَزُ فيه لأنّ ذلك هو المعروف من كلام العرب . وكلام الله لا يوجّه إلّا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلّا أن تقوم حجّةٌ على شيءٍ منه بخلاف ذلك فيسلّم لها[٤] .

ظلّ الملأ الذين كفروا من قوم نوحٍ عليه السّلام يسخرون منه عليه السّلام وهو ينذرهم بين يدي عذابٍ شديد حتّى جاء أمر الحقّ جلّ وعلا بهلاك القوم ، وكانت علامة ذلك أن يفور الماء من التّنّور وينبجس الماء وينفجر من الفُرْن الذي يخبز فيه ، دليلاً على بداية الطّوفان . لقد شاء الله تعالى أن يفور الماء في التّنّور الذي يتعامل مع النّار أساساً ، وأن ينفجر الماء من غير المكان المتوقّع للماء أن ينفجر أو ينبجس منه . أما وقد فار التّنّور دليلاً على بداية الطّوفان فقد أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السّلام أن يحمل فيها من كلّ صنفٍ زوجين اثنين ، ذكراً وأنثى ، وأن يحمل معه أهله المؤمنين إلّا من سبق عليه القول منه جلّ وعلا بالغرق من أهل نوحٍ عليه السّلام ، وأن يحمل معه من آمن معه عليه الصّلاة والسّلام وكانوا قليلاً رغم أنّه لبث في قومه ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى صراط العزيز الحميد . ومن أهل نوح عليه السّلام الذين غرقوا ولده الذي أشارت إليه السّورة الكريمة ، وزوجه التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة من سورة التّحريم[٥] قال تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوحٍ وامرأة لوط . كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النّار مع الدّاخلين ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٢٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٢٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٤٥ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/٢٥ .
(٥) الآية ١٠ .

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾

وقال نوحَ عليه السّلام للمؤمنين اركبوا في السّفينة بسم الله تعالى الذي لا إله إلّا هو مجريها ، بمعنى جريها على وجه الماء[١] وبسم الله تعالى مرساها بمعنى منتهى سيرها وهو رسوّها[٢] إنّ ربّي لغفورٌ لذنوبنا رحيمٌ بنا حينما لم يغرقنا . وما أشدّ تناغم لفظ الرّبّ الذي يفيد تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ، مع المغفرة والرّحمة .

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ جري السّفينة ورسوّها باسم الله تعالى . وإنّ هذه الآية الكريمة تتحدّث عن جري السّفينة فتقرّر أنّها تجري بمن فيها مع نوحٍ عليه السّلام في موجٍ كالجبال ضخامةً وعلوّاً . ونادى نوحٌ عليه السّلام ابنه واسمه كنعان فيما يقال[٣] ويقال بل إنّ اسمه يام[٤] وكان كافراً يا بنيّ اركب معنا نحن المؤمنين في السّفينة ولا تكن مع الكافرين خارجها المغرقين . وما أشدّ إشفاق نوحٍ عليه السّلام الأبّ الرّءوف الرّحيم حينما ينادي ابنه الكافر في ذلك الظّرف العصيب في صيغة تصغير التّمليح بقصد استمالة قلب الابن الكافر الكنود إلى الإيمان : ﴿ يا بنيّ اركب معنا ﴾ .

قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يعصمني من الماء : يمنعني مثل عصام القربة الذي يشدّ به رأسها فيمنع الماء أن يسيل منها[٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٤٦/٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٦/٢ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير الطّبريّ ٢٨/١٢ وتفسير ابن كثير ٤٤٦/٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٢٨/١٢ .

لا عاصم اليوم من أمر الله : أي ليس شيءٌ يعصم اليوم من أمر الله[1] .

قال الابن الكافر العاصي لأبيه نوح عليه السّلام سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء ، وسألجأ إليه كي يمنعني من الطّوفان . قال نوحٌ عليه السّلام لابنه الكافر لا مانع اليوم من أمر الله تعالى بغرق الكافرين خارج السّفينة ولا شيء يعصم اليوم من أمر الله تعالى بالهلاك بالطّوفان إلّا من رحم الله تعالى فهداه فآمن وركب السّفينة . وحال الموج الذي يشبه الجبال ضخامةً وارتفاعاً بين الأب نوح عليه السّلام الشّفيق بابنه ، وبين الابن الكافر العاصي فكان ذلك الابن من المغرقين في الطّوفان .

والآية الكريمة التّالية تتحدّث في رسوّ السّفينة ومنتهى سيرها .

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذه الآيات الكريمات التّاليات من سورة القمر تبيّن في إيجاز ما جرى لنوحٍ عليه السّلام مع قومه حتّى إنجاء الله تعالى المؤمنين وإغراق الكافرين ، كما تبيّن دور كلٍّ من السّماء والأرض في التّزويد بماء الطّوفان . قال تعالى[2] : ﴿ كذّبت قبلهم قومُ نوحٍ فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدُجِر . فدعا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصر . ففتحنا أبواب السّماء بماءٍ منهمر . وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِر . وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر[3] تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر . ولقد تركناها آيةً فهل من مدّكر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر ﴾ إنّ أبواب السّماء فُتِحَت بماءٍ منصبٍّ انصباباً شديداً . وإنّ الأرض فُتِحَت عيوناً ثرّةً متدفّقةً بالماء . فالتقى الماء الهاطل بالماء النّابع على أمرٍ قدره الله تعالى بهلاك الكافرين من قوم نوحٍ عليه السّلام .

وإنّ الآية الكريمة من سورة هود عليه السّلام تقرّر أنّ الأرض قيل لها ابلعي ماءك . وهذا الماء منه ما نبع من الأرض ذاتها ، ومنه ما نزل من السّماء . وفي كلتا الحالتين هو ملكٌ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٤٦ .

(٢) سورة القمر ٩ ــ ١٧ .

(٣) الدّسر : المسامير .

للأرض . وإنّ الأرض تؤمر بأن تبلع ماءها ، ما تفجّر منها في هيئة العيون ، وما نزل إليها في هيئة الصيّب من السّماء . ولا تملك الأرض ـ كما لا تملك السّماء ـ إلّا أن تطيع . وقد جاء في سورة فصّلت[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ثمّ استوى إلى السّماء وهي دُخَانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

وكما أُمِرَت الأرض بأن تبلع ماءها أُمِرَت السّماء أن تُقْلِع عن إنزال الماء وأن تُغْلِق أبواب هطول المطر . وقد جاء لفظ الماء صريحاً مع الأرض ومفهوماً ضمناً مع السّماء تنبيهاً إلى كون الأرض مستقرّ الماء ومستودعه ، وإلى كون السّماء ممرّ الماء ومعبره إلى الأرض . إنّ الأرض وهي المستودع قد ابتلعت ماءها ، وإنّ السّماء وهي الممرّ قد كفّت عن إنزال الماء . ونتيجةً لابتلاع الموجود من الماء وعدم وجود الجديد منه غيض الماء ، وذهبت به الأرض ونشّفته[2] وحينما لا يكون ثمّة ماء لا تجري السّفينة على اليبس بل تستوي وترسو[3] وقد جاء في آيةٍ كريمةٍ سابقةٍ القول : ﴿ بسم الله مجريها ومُرْسَاها ﴾ وجاء هنا القول : ﴿ واستوت على الجوديّ ﴾ وهو جبلٌ فيما ذكر بناحية الموصل أو الجزيرة[4] ويقال إنّ هذا الجبل هو قمّة جبال أرارات بأرمينيا[5] .

وما معنى استواء السّفينة على جبل الجوديّ ؟ نجاة المؤمنين وغرق الكافرين الذين ما بكت عليهم السّماء والأرض وما كانوا مُنْظَرين . وعن هؤلاء المغرقين جاء القول في الآية الكريمة : ﴿ وقيل بُعْداً للقوم الظّالمين ﴾ ومن بين هؤلاء المبعدين المطرودين من رحمة الله تعالى الابن الكافر لنوحٍ عليه السّلام . وتتحدّث الآية الكريمة التّالية عن نداء نوحٍ عليه السّلام ربّه جلّ وعلا بشأن هذا الابن .

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

جاء في الآية الكريمة الأربعين الوعد من الله تعالى بنجاة أهل نوحٍ عليه السّلام من الغرق إلّا من سبق عليه القول من الله تعالى بالغرق منهم بسبب كفرهم . قال تعالى :

---

(١) الآية ١١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٢٩/١٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٢٩/١٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٢٩/١٢ .

(٥) القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعِلْم . دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة ٢٤٨ موريس بوكاي .

﴿ حتّى إذا جاء أمرنا وفار التّنور قلنا احمل فيها مِنْ كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن . وما آمن معه إلّا قليل ﴾ وقد فهم نوحٌ عليه السّلام أنّ ابنه من صلبه هو أحد أهله رغم كفره لذا هو نادى ربّه جلّ وعلا مربّيه بنعمه وآلائه قائلاً يا ربّي ، يا من أسبغت عليَّ نعمك العظيمة إنّ ابني الذي غرق هو مِنْ أهلي وقد وعدت بنجاة أهلي وإنّ وعدك الحقّ الذي لا ريب فيه وأنت أحكم الحاكمين وأعدل الحاكمين وأنت القادر على إعادة ابني لي .

ولمّا كان الابن كافراً وقد سبق القول من الله تعالى بغرق كلّ كافر لأنّ المؤمنين وحدهم هم الذين ركبوا السّفينة فقد جاء التّبيين لأبعاد هذا القول في الآية الكريمة التّالية على لسان ربّ العزّة والجلال .

ويقول ابن عطيّة في تفسيره[1] : « وهذه الآية تقتضي أنّ نوحاً عليه السّلام ظنّ أنّ ابنه مؤمن ، وذلك أشدّ الاحتمالين » .

ويصحّ أن يكون نداء نوحٍ ربّه جلّ وعلا في أوّل ما ركب السّفينة وقبل أن يغرق الابن[2] .

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

أجاب ربّ العزّة نوحاً عليه السّلام وناداه باسمه : ﴿ يا نوح ﴾ فضلاً منه جلّ وعلا ومنّة ، تأنيساً له وتطييباً بين يدي القول الحقّ ، والحكم الفصل : ﴿ إنّه ليس من أهلك ﴾ إنّ ابنك الذي غرق وإن كان من صُلْبك فإنّه بسبب كفره ليس من أهلك لأنّ أهلك الحقيقيّين هم إخوتك في الدّين وأخواتك سواءٌ كانوا متّصلين منك بنسب أو غير متّصلين بك بنسبٍ ولا سبب . إنّ المؤمنين أسرةٌ واحدة كما أنّ الإيمان ملّة واحدة وذلك في مقابل الكافرين الأسرة الواحدة والكفر الملّة الواحدة .

ولمّا كان القول « إنّه » في المرّة الأولى متعلّقاً بابن نوحٍ عليه السّلام فليس ثمّة ما يمنع ـ والله أعلم ـ أن يكون القول ذاته في المرّة الأخرى متعلّقاً بهذا الابن الكافر : ﴿ إنّه عملٌ

---

(١) ٣٠٩/٧ .

(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ٣٠٩/٧ .

غير صالح ﴾ وكأنّ المعنى ـ والله أعلم ـ إنّ ما قام به الابن عمـــلٌ غير صالح بل طالح . وبذلك يكون القول : ﴿ إنّه عملٌ غير صالح ﴾ بمثابة التّعليل للقول : ﴿ إنّه ليس من أهلك ﴾ .

وينهي الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السّلام أن يسأل الله تعالى ما يعلمه الله تعالى وحده لا شريك له ولا يعلمه نوحٌ عليه السّلام العبد المملوك لسيّده الذي له وحده دون سواه الخلق والأمر . ويوعظ نوحٌ عليه السّلام أن يكون من الجاهلين الذين لا يعلمون من ناحية ، والذين يسألون ما ليس لهم به علم من ناحيةٍ أخرى .

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

يبادر نوحٌ عليه السّلام ، الذي سأل ربّه جلّ وعلا نجاة ابنه ، إلى الإنابة إلى الله تعالى فينادي ربّه جلّ وعلا مربّيه بنعمه وآلائه ، ويلجأ إليه ويستجير به جلّ وعلا أن يتكلّف عليه السّلام سؤال ربّه جلّ وعلا ما ليس له به علم . ويدعو نوحٌ عليه السّلام ربّه جلّ وعلا أن يغفر له ذنبه وأن يتغمّده برحمته التي وسعت كلّ شيءٍ وإلّا كان من الخاسرين .

قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

استجاب الله تعالى الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه دعاء نوحٍ عليه السّلام بأن يغفر ذنبه ويتغمّده برحمته جلّ وعلا . وها هو ذا ربّ العزّة والجلال ينادي نوحاً عليه السّلام باسمه دليلاً على رضاه جلّ وعلا عنه عليه السّلام . ويؤمر نوحٌ عليه السّلام أن يهبط من السّفينة بسلام منه جلّ وعلا وأمنٍ وطمأنينة ، وبركاتٍ منه تعالى وخيراتٍ على نوحٍ عليه السّلام وعلى أممٍ ممّن معه في السّفينة ، وعلى جماعات تظلّ مسلمةً لله ربّ العالمين تفرده جلّ وعلا بالعبادة وتفعل ما تؤمر به وتنتهي عمّا تُنْهَى عنه .

وفي مقابل هؤلاء المؤمنين الذين يشملهم الأمن والبركة من الله تعالى هنالك الكافرون الذين يُمَتَّعون في هذه الحياة الأولى قليلاً ثمّ يمسّهم من الله تعالى عذابٌ أليم وينالهم أخذٌ شديد .

تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

في هذه الآية الكريمة الأخيرة من قصّة نوحٍ عليه السّلام مع قومه يتحوّل الحديث إلى المصطفى ﷺ الذي كان يعاني آنذاك من كافري قومه مثل ما عانى نوحٌ عليه السّلام من الملأ الذين كفروا من قومه .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ تلك القصّة عن نوحٍ عليه السّلام وقومه من أنباء الغيب وأخبار ما غاب عنه ﷺ ، التي أوحاها الله تعالى إليه في القرآن الكريم والتي لم يكن المصطفى ﷺ ولا قومه على علمٍ بشيءٍ منها . والعجيب في أمر الكافرين أنّهم يكذّبون المصطفى ﷺ ويهرفون بما لا يعرفون . وتجاه هذا السّفه من الكافرين تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يصبر على الأذى وعلى الدّعوة إلى الله تعالى وعلى عمل الصّالحات ، وأن يتحلّى بالصّبر في كلّ الأمور . وتبشّر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأنّ العاقبة للمتّقين الذين يرقبون الله تعالى في السّرّ والعلن ، والذين يعملون الصّالحات ويجتنبون السّيّئات . إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : كما كانت العاقبة لنوح عليه السّلام والمؤمنين معه فإنّ العاقبة لك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وللمؤمنين معك بإذن الله تعالى مالك الملك ذي الجلال والإكرام .

« هودٌ عليه السّلام يدعو عاداً
إلى عبادة الله تعالى وقد
كفرت ربّها فبعداً لعاد »
الآيات (٥٠ ـ ٦٠)

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

جاء في الآية الكريمة الخامسة والعشرين القول : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ والمعنى هنا : وأرسلنا إلى قوم عادٍ أخاهم هوداً[1] قال يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له . ما لكم من إله غيره ، ولا معبود بحقٍّ سواه . ما أنتم في عبادتكم الأوثان إلّا مفترون على الله تعالى الكذب بنسبة الشريك إليه وبصرفكم العبادة التي يستحقّها هو وحده لا شريك له إلى غيره . وعاد يسكنون باليمن بين عُمان وحضرموت[2] وقد جاء في سورة الأحقاف[3] القول : ﴿ واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النّذر من بين يديه ومن خلفه ألّا تعبدوا إلّا الله إنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم ﴾ والأحقاف جبال الرّمل[4] جمع الحِقف ، بكسر الحاء ، أي الرّمل المائل[5] وما اعوجّ من الرّمل واستطال[6] .

يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

يكرّر هودٌ عليه السّلام نداء قومه بالقول : ﴿ يا قوم ﴾ مظهراً من مظاهر الخلق العظيم الذي فطر الله تعالى عليه أنبياءه . وهل يريد الحصيف إلّا الخير لقومه فكيف بأنبياء الله تعالى ورسله . ومع أنّ هوداً عليه السّلام يدعو إلى توحيد الله تعالى ، أنبل غايةٍ وأعظم هدف ، فإنّه كسائر النّبيّين لا يريد أيّ أجرٍ في مقابل دعوته إلى الله تعالى إنّما يريد الأجر من ربّ العباد جلّ وعلا وحده لا شريك له . وها هو ذا يصرّح عليه السّلام بالقول : ﴿ إن أجري إلّا على الذي فطرني ﴾ والمعنى : ما أجري إلّا على الذي خلقني وأوجدني من العدم . ويحثّهم على استعمال عقولهم استعمالاً صحيحاً فإنّهم سينتهون إلى أنّ من يقوم بأنبل عملٍ دون أخذ أجرٍ عليه ينبغي أن يكون الإخلاص باعثه والخير رائده .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٥/١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٢٥/٢ .

(٣) الآية ٢١ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢٢٤/٢ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حقف » ١٢٦ .

(٦) انظر ــ مثلاً ــ القاموس المحيط : « حقف » .

وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

استغفروا ربّكم : الغُفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب . والاستغفار طلب ذلك بالمقال والفِعال[١] .

ثمّ توبوا إليه : التَّوْب ترك الذّنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار . والتّوبة في الشّرع ترك الذّنب لقبحه ، والنّدم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتداركُ ما أمكنه أن يُتدارك من الأعمال بالإعادة[٢] .

يرسل السّماء عليكم مِدْراراً : أصله من الدَّرّ والدِّرّة أي اللّبن . ويستعار ذلك للمطر استعارة أسماء البعير وأوصافه ، فقيل : لله دَرُّه ، ودرَّ درُّك[٣] والمعنى : يدرّ لكم الغيث في وقت حاجتكم إليه وتحيا بلادكم من الجدب والقحط[٤] .

على غرار الآية الكريمة السّابقة تبدأ هذه الآية الكريمة وللغرض النّبيل ذاته بالقول : ﴿ يا قوم ﴾ وليس وراء هذا اللّطف في القول وراء . إنّ هوداً عليه السّلام ينادي قومه ويأمرهم بأن يستغفروا ربّهم جلّ وعلا من الذّنب العظيم الذي ارتكبوه وهو الإشراك مع الله تعالى سواه ، وأن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بطرح الشّرك ، والنّدم على التّورّط فيه ، والعزم على عدم العودة إليه ، واعتناق التّوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة . وإنّ هوداً عليه السّلام نبيّ الله تعالى الموحى إليه يقول لقومه : استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يرسل السّماء عليكم مدراراً ، ويجعل الأمطار تجري من تحتكم أنهاراً ، ويزدكم قوّةً في المال والجاه والولد إلى قوّتكم . كما أنّه عليه السّلام ينهاهم أن يتولّوا مجرمين ، ويصرّوا على إعراضهم مشركين .

وكما يكون الاستغفار من الذّنوب السّابقة تكون التّوبة من الذّنوب اللّاحقة[٥] .

عن ابن عبّاس : قوله : « مدراراً » يقول : يتبع بعضها بعضاً[٦] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « غفر » ٣٦٢ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « توب » ٧٦ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « درّ » ١٦٦ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٣٥/١٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٤٩/٢ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٣٦/١٢ .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

ما جئتنا ببيّنة : أي بحجّةٍ وبرهان على ما تدّعيه[١] ولا بيان[٢] .

عن قولك : يعني لقولك ، أو من أجل قولك[٣] وبمجرّد قولك : أُتْرُكوهم نتركهم[٤] .

وما نحن لك بمؤمنين : وما نحن لك بمصدّقين[٥] .

قوم هودٍ عليه السّلام ينادونه عليه السّلام في أسلوبٍ فظّ : « يا هود » وينفون أن يكون عليه الصّلاة والسّلام قد جاءهم ببيّنةٍ من ربّهم جلّ وعلا وبحجّة أو برهان ! وهم يعلنون استمساكهم بآلهتهم الزّائفة ، ويؤكّدون عدم تركهم آلهتهم لمجرّد قول هودٍ عليه السّلام لهم : اتركوا هذه الآلهة الزّائفة . وهم يعلّلون عدم ترك الآلهة لأنّهم ليسوا بمصدّقين لهودٍ عليه السّلام . وليس بخافٍ دور الباء في تأكيد عدم الإيمان في القول : ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ .

وحينما تكون جملة جاء إنّما تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب والمجيء الفعليّ يكون في القول : ﴿ ما جئتنا ببيّنة ﴾ الشّهادة على لسان القوم بأنّه عليه الصّلاة والسّلام قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمّة .

إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

إن نقول : ما نقول[٦] .

إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء : أصابك منها خَبَلٌ من جنون[٧] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٤٩ .
(٢) انظر تفسير الطّبريّ ١٢/٣٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٣٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٤٤٩ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٣٦ وتفسير ابن كثير ٢/٤٤٩ .
(٦) تفسير الطّبريّ ١٢/٣٦ .
(٧) تفسير الطّبريّ ١٢/٣٦ .

فكيدوني جميعاً : فاحتالوا أنتم جميعاً وآلهتكم في ضرّي ومكروهي[1] .

ثمّ لا تُنْظِرون : ثمّ لا تؤخّرون ذلك[2] ولا تمهلون[3] لا : ناهية جازمة . تنظروا : فعل مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النّون لأنّه من الأفعال الخمسة . والواو : فاعل . والنّون : للوقاية . والياء المحذوفة تخفيفاً : ضميرٌ مفعولٌ به[4] .

في القول على لسان كافري قوم هودٍ عليه السّلام : ﴿ إن نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ يواصل الكافرون هجومهم على رسول الله تعالى إليهم فيقولون : ما نقول إلّا أصابك بعض آلهتنا بسوءٍ ونالك منها مسٌّ من جنون بدعوتك إلى صرف العبادة عنها إلى ربّك وإلهك ، ولهذا أنت تَهْذِي ولا تَعْقِل ما تقول ، وتهرف بما لا تَعْرِف !

ويبادر هودٌ عليه السّلام إلى الدّفاع عن دين التّوحيد الذي بعثه الله تعالى به ، وفي دفاعه عن دين التّوحيد دفاعٌ عنه فيقول عليه الصّلاة والسّلام : إنّه يشهد الله الذي لا إله إلّا هو على نفسه ، كما يُشْهِد أولئك القوم الكافرين بأنّه بريءٌ ممّا يشركون من دون الله تعالى وممّا يعبدونه من أوثانٍ وأصنام . وتأكيداً لعجز قومه الكافرين وعجز الآلهة المزعومة عن إلحاق أدنى أذًى به إلّا أن يشاء الله تعالى ، هو يأمرهم جميعاً بأن يكيدوه ويحتالوا في إلحاق الأذى به ويجتهدوا في إيصال المكروه إليه ، كما يأمرهم جميعاً بأن يبادروا إلى الكيد الفعليّ به وألّا يتباطئوا في تنفيذ ذلك وألّا يمهلوه أكثر ممّا أمهلوه .

وهكذا يكون الإخلاص في الدّعوة إلى الله تعالى والاستعانة به والثّقة فيه جلّ وعلا وحده لا شريك له .

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

ما من دابّة إلّا هو آخذٌ بناصيتها : النّاصية عند العرب مَنْبِت الشَّعَر في مقدَّم الرّأس ، وسمّي الشَّعَر ناصية لنباته من ذلك الموضع . وقوله عزّ وجلّ : ما من دابّة إلّا هو

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٦/١٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣٦/١٢ .

(٣) الجلالين .

(٤) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٥٦/٦ .

آخذٌ بناصيتها : قال الزّجّاج : معناه في قبضته تناله بما شاء قُدْرته ، وهو سبحانه لا يشاء إلّا العدل[1] .

يعلن هودٌ عليه السّلام توكّله على الله تعالى ربّه جلّ وعلا وربّ قومه وفي ذلك تأكيدٌ لاستمراره الدّعوة إلى الله تعالى مهما تكن العقبات . وتأكيداً لعجز الآلهة المزعومة يؤكّد هود عليه السّلام أنّه ما من دابّة تدبّ على الأرض إلّا هو جلّ وعلا آخذٌ بناصيتها ، وهي خاضعةٌ لمشيئته . وتأكيداً لاعوجاج طرق الآلهة المزعومة يبيّن هودٌ عليه السّلام صراط الله تعالى المستقيم الذي يهدي الله تعالى إليه من يشاء من عباده بأن يشرح صدره للإسلام : « فإن قال قائل : وكيف قيل هو آخذٌ بناصيتها فخصَّ بالأخذ النّاصية دون سائر أماكن الجسد ؟ قيل : لأنّ العرب كانت تستعمل ذلك في وصفها من وصفته بالذّلّة والخضوع فتقول : ما ناصية فلان إلّا بيد فلان ، أي إنّه له مطيع يصرّفه كيف شاء . وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزّوا ناصيته ليعتدّوا بذلك عليه فخراً عند المفاخرة ، فخاطبهم الله بما يعرفون في كلامهم »[2] .

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

يواصل هودٌ عليه السّلام خطاب الكافرين من قومه فيقول لهم : إن تتولوا وتعرضوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، وقمت بإبلاغكم رسالة ربّي جلّ وعلا ، والله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يأخذكم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ ويستخلف قوماً غيركم لن يكونوا أمثالكم ، وأنتم على كلّ حال لا تضرّون الله تعالى شيئاً لأنّه جلّ وعلا هو الغنيّ وأنتم الفقراء . ويبيّن هودٌ عليه السّلام للكافرين أنّ الله تعالى على كلّ شيءٍ رقيب وحافظ فمجازٍ على كلٍّ من الحسنات والسّيّئات ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون . إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾[3] .

---

(١) لسان العرب : « نصا » .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣٧/١٢ .

(٣) سورة الشّعراء ٨٨ ، ٨٩ .

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

ولمّا جاء أمر الله تعالى بهلاك قوم هودٍ عليه السّلام بالرّيح الصّرصر العقيم نجّى الله تعالى هوداً عليه السّلام والذين آمنوا معه برحمةٍ منه جلّ وعلا في الحياة الأولى ونجّاهم في الآخرة من عذابٍ غليظ . جاء في سورة الحاقّة[1] قوله تعالى : ﴿ كذّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة . فأمّا ثمود فأهلكوا بالطّاغية . وأمّا عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية . سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيّامٍ حسوماً فترى القوم فيها صَرْعى كأنّهم أعجاز نخلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

يشار إلى عاد باسم الإشارة الدّالّ على البعد : « تلك » بين يدي التّعبير عن لعن الله تعالى لهم وإبعادهم من رحمته جلّ وعلا . إنّ عاداً جحدوا بآيات ربّهم جلّ وعلا ، وعصوا رسله تعالى لأنّ رسالة كلّ الرّسل واحدة ، ولأنّ عصيان الواحد من الرّسل عصيانٌ في الحقيقة لهم أجمعين . وحينما عصت عادٌ رسول الله تعالى إليهم اتّبعت أمر كلّ جبّارٍ متكبّرٍ وعنيدٍ مصرٍّ على كفره وصدّه عن سبيل الله تعالى من الملأ الذين كفروا من قومه . وفي مقابل اتّباعهم كلّ جبّار عنيدٍ أُتبعوا في هذه الحياة الأولى لعنةً وفي الآخرة لعنةً بالطّرد من رحمة الله تعالى ودخول النّار وبئس القرار . إنّ عاداً كفروا ربّهم جلّ وعلا وعبدوا الأوثان فاستحقّوا أن يقال لهم : ﴿ بعداً لعادٍ قوم هود ﴾ في الدّنيا بالهلاك بالرّيح الصّرصر ، وفي الآخرة بالدّخول في نار جهنّم والخلود فيها والعياذ بالله تعالى .

---

(١) الآيات ٤ ـ ٨ .

« صالحٌ عليه السّلام يدعو ثمود
إلى عبادة الله تعالى وقد
كفرت ربّها فبعداً لثمود »
الآيات (٦١ ـ ٦٨)

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

وإلى ثمود أخاهم صالحاً : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً[1] من القبيلة[2] وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحِجْر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد[3] .

هو أنشأكم من الأرض : ابتدأ خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم منها[4] .

واستعمركم فيها : جعلكم عمّاراً تعمرونها وتستغلّونها[5] .

جاء في الآية الكريمة الخامسة والعشرين القول : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ وجاء في الآية الكريمة الخمسين القول : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً ﴾ والمعنى : وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً . وجاء هنا القول : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ والمعنى : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً[6] .

من البيّن أنّ دعوة كلّ النّبيّين واحدة ، إنّها الأمر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وباستغفار الله تعالى القريب المجيب من ارتكاب الذّنوب ابتداءً بأكبرها وهو الإشراك مع الله تعالى غيره في العبادة ، وبالتّوبة النّصوح إلى الله تعالى على نحو ما تبيّن من معنى التّوبة في الآية الكريمة الثّانية والخمسين .

وينبّه صالحٌ عليه السّلام قومه إلى أنّ الله تعالى الذي بعث صالحاً عليه السّلام كي يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى هو وحده لا شريك له الذي ابتدأ خلقهم من الأرض بخلق أبيهم آدم عليه السّلام منها ، وبخلق أمّهم حوّاء عليها السّلام من ضِلَعٍ من أضلاع آدم عليه السّلام ، من شقّه الأيسر كما روي عن ابن عبّاس[7] : ثمّ نشر الله تعالى من آدم وحوّاء

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٨/١٢ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٥٠/٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٣٨/١٢ وتفسير ابن كثير ٤٥٠/٢ والجلالين .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٥٠/٢ وتفسير الطّبريّ ٣٨/١٢ والجلالين .

(٦) تفسير الطّبريّ ٣٨/١٢ .

(٧) تفسير الطّبريّ ١٥٠/٤ .

عليهما السّلام رجالاً كثيراً ونساءً . جاء في أولى آيات سورة النّساء قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ يا أيها النّاس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحامَ . إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

وإنّ الله سبحانه وتعالى الذي خلق النّاس أجمعين ، وفيهم ثمود قوم صالح ، من أجل عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، جعلهم عمّاراً في الأرض وأمرهم بعمارتها ، واستغلال خيراتها ، وتسخير كلّ ما فيها ـ وما في السّماوات أيضاً ـ من أجل تحقيق معنى العبادة بمعناها الواسع في دين الإسلام . إنّ كلّ عملٍ صالح يراد به وجه الله تعالى يعتبر عبادةً لله تعالى .

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

قد كنت فينا مرجوّاً قبل هذا : كنّا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل هذا القول الذي قلته لنا[1] .

كما خاطبت عادٌ هوداً عليه السّلام ، رسول الله تعالى إليها ، في طريقةٍ فظّةٍ غير مهذّبةٍ ولا مؤدّبةٍ ، على نحو ما جاء في الآية الكريمة الثّالثة والخمسين : ﴿ قالوا يا هود ﴾ تخاطب ثمود صالحاً عليه السّلام رسول الله تعالى إليها في الطّريقة الفظّة ذاتها ، غير المهذّبة ولا المؤدّبة : ﴿ قالوا يا صالح ﴾ واللّطيف في الأمر أنّ كلًّا من نوحٍ وهودٍ وصالحٍ عليهم الصّلاة والسّلام ينادون في الآيات الكريمات أقوامهم ثلاث مرّات في هذا الأسلوب الكريم السّامي : ﴿ يا قوم ﴾ نوحٌ عليه السّلام في الآيات الكريمات (٢٨ و ٢٩ و ٣٠) وهودٌ عليه السّلام في الآيات الكريمات (٥٠ و ٥١ و ٥٢) وصالحٌ عليه السّلام في الآيات الكريمات (٦١ و ٦٣ و ٦٤) وأمّا شعيبٌ عليه السّلام خطيب الأنبياء فستّ مرّاتٍ في الآيات الكريمات (٨٤ و ٨٥ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٢ و ٩٣) أمّا لوطٌ عليه السّلام فمرّةٌ واحدة وذلك في الآية الكريمة (٧٨) .

إنّ قوم صالحٍ عليه السّلام يقولون له بصريح العبارة إنّك كنت فينا سيّداً مطاعاً ، نرجو المزيد من خيرك والفضل من كامل عقلك وراجح فكرك ، قبل هذا الذي دعوتنا إليه من عبادة الإله الواحد ونبذ عبادة الأصنام . وفي أسلوب الإنكار يسألون : ﴿ أتنهانا أن نعبد

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٨/١٢ .

ما يعبد آباؤنا ﴾ من الأصنام والأوثان . وإنّنا لفي شكٍّ ممّا تدعونا إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وهو شكٌّ موجبٌ للتّهمة وموقعٌ للرّيبة !

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

يواصل صالحٌ عليه السّلام دعوة قومه إلى الله تعالى وإرشادهم إلى ما فيه فلاحهم فيقول لهم : يا قوم أخبروني إن كنت على هُدًى من ربّي جلّ وعلا وبرهان ، وحجّةٍ بيّنةٍ وسلطان ، وآتاني جلّ وعلا رحمةً منه ونعمة ، نبوّةً وحكمةً ، فمن يدفع عنّي عذابه جلّ وعلا إن عصيته فلم أبلّغ الرّسالة وأؤدّ الأمانة وأنصح لكم . إنّكم بطلبكم منّي أن أترككم على شرككم وألّا أدعوكم إلى صراط العزيز الحميد ما تزيدونني غير خسرانٍ وهلاكٍ وبعدٍ عن الخير وقربٍ من الشّرّ[1]

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

تتحدّث الآية الكريمة عن ناقة صالح عليه السّلام التي جعلها الله تعالى آيةً وعلامةً على صدقه وأنّه رسول ربّ العالمين إليهم . إنّ قوم صالحٍ عليه السّلام طلبوا منه حجّةً على صدقه . جاء في سورة الشّعراء[2] قوله تعالى : ﴿ قالوا إنّما أنت من المسحَّرين[3] ما أنت إلّا بشرٌ مثلنا فأْتِ بآيةٍ إن كنت من الصّادقين . قال هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ[4] ولكم شِرْبُ يومٍ معلوم . ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابُ يومٍ عظيم ﴾ إنّ آية صالح عليه السّلام تمثّلت في النّاقة التي خرجت بإرادة الله تعالى من صخرةٍ أمام أعين القوم[5] وكانت تأكل في أرض الله

---

(١) انظر لسان العرب : « خسر » .

(٢) الآيات ١٥٣ ـ ١٥٦ .

(٣) المُسَحَّرون هم الذين سُحِروا كثيراً حتّى غلب على عقلهم .

(٤) شِرْب : نصيبٌ من الماء .

(٥) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ١٥٨/٨ . .

تعالى يوماً تغيب فيه عن أعين النّاس ، وكانت تشرب الماء يوماً . وفي اليوم الذي تشرب فيه تقف لهم حتّى يحلبوا اللّبن فترويهم ، وفي اليوم الذي تأكل فيه هم يشربون الماء[1] إنّ صالحاً عليه السّلام يأمر قومه بأن يتركوا النّاقة تأكل في أرض الله تعالى ، وينهاهم أن يمسّوها بسوء ، وينالوها بأذًى فيأخذهم عذابٌ من الله تعالى قريبٌ وشديد .

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

أصرّت ثمود على تكذيب صالحٍ عليه السّلام ، وارتكبت ما نهاها عن ارتكابه من مسّ النّاقة التي طلبوها آيةً بأيّ سوء فعقروها فتعرّضوا لعذاب الله تعالى فقال لهم صالحٌ عليه السّلام : ﴿ تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّامٍ ﴾ يأخذكم بعد ذلك الوعد الصّادق غير المكذوب فيه ، العذاب الأليم . جاء في سورة الأعراف[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فعقروا النّاقة وعَتَوْا عن أمر ربّهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تَعِدُنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ .

والآيات الكريمات الثّلاث التّاليات في إنجاء الله تعالى صالحاً عليه السّلام والمؤمنين وإهلاك الكافرين المكذّبين .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

ومِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذ : ونجّيناهم من هوان ذلك اليوم وذلّه بذلك العذاب[3] .

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ١٥٨/٨ .

(٢) الآية ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٣٩/١٢ .

فأصبحوا في ديارهم جاثمين : باركين على الرّكب ميّتين[1] استعارة للمقيمين ، مِنْ قولهم : جثم الطّائر إذا قعد ولَطِئ بالأرض[2] .

كأن لم يغنوا فيها : كأن لم يعيشوا فيها[3] .

لمّا جاء أمر الله تعالى بهلاك ثمود نجّى الله تعالى صالحاً عليه السّلام والذين آمنوا معه برحمةٍ منه جلّ وعلا وفضل ، ونجّاهم من خزي عذاب ذلك اليوم العصيب . إنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم هو القويّ العزيز القادر على معاملة كفّار مكّة بالمثل . وكانت وسيلة عذاب الذين ظلموا الصّيحة الواحدة التي أخذتهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين على الرّكب ميّتين كأنّهم لم يعيشوا في تلك الدّيار يوماً من الأيّام . إنّ ثمود كفروا ربّهم جلّ وعلا وأصرّوا على الشّرك وتكذيب رسول الله تعالى إليهم فاستحقّت ثمود الطّرد من رحمة الله تعالى . جاء في سورة الذّاريات[4] قوله تعالى : ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتّى حين . فَعَتَوْا عن أمر ربّهم فأخذتهم الصّاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا مِنْ قيامٍ وما كانوا منتصرين ﴾ وجاء في سورة القمر[5] قوله تعالى : ﴿ إنّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المحتظِر ﴾ .

---

(١) الجلالين .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جثم » ٨٨ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٤٢/١٢ .

(٤) الآيات ٤٣ ـ ٤٥ .

(٥) الآية ٣١ .

« الملائكة تبشّر إبراهيم عليه السّلام
وزوجه بالولد ، وإبراهيم يجادل في قوم لوطٍ
عليه السّلام الّذين حقّ عليهم العذاب »
الآيات (٦٩ ـ ٧٦)

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾

ولقد جاءت رسلنا : من الملائكة[١] .

بالبُشْرى : بالبشارة[٢] بإسحاق ويعقوب بعده[٣] قال تعالى[٤] : ﴿ وامرأَتُهُ قائمةٌ فَضَحِكَتْ فبشّرناها بإسحاقَ ومِنْ وراء إسحاق يعقوب ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ فلمّا ذهب عن إبراهيم الرَّوْع وجاءته البُشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ .

قالوا سلاماً : سلاماً مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نسلّم[٦] .

قال سلامٌ : سلام مبتدأ مرفوع خبره محذوف أي سلامٌ عليكم . والذي سوّغ الابتداء بالنّكرة كونها تدلّ على عمومٍ وهي للمدح . ويجوز أن يكون سلام خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : قولي أو ردّي أو جوابي سلام[٧] قال علماء البيان : هذا أحسن ممّا حيّوه به ، لأنّ الرّفع يدلّ على الثّبوت والدّوام[٨] .

فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ : أي ذهب سريعاً فأتاهم بالضّيافة وهو عِجْل فتى البقر . حنيذ : مشويٌّ على الرَّضْف[٩] وهي الحجارة المُحْماة[١٠] والعجل : حسيل البقر[١١] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ رسل الله تعالى من الملائكة جاءت إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء بالبشارة بإسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام ومن وراء إسحاق يعقوب بن إسحاق بن

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٢ .
(٣) الجلالين .
(٤) سورة هود ٧١ .
(٥) سورة هود ٧٤ .
(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٢٧١ .
(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٢٧١ .
(٨) تفسير ابن كثير ٢/٤٥١ .
(٩) الرَّضْف بفتح الرّاء وسكون الضّاد الحجارة المحماة واحدتها رَضْفة .
(١٠) تفسير ابن كثير ٢/٤٥١ .
(١١) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٢ .

إبراهيم عليهم السّلام فسلّموا عليه سلاماً وألقوا عليه القول دليل الأمن والطّمأنينة فردّ عليهم التّحيّة بأحسن منها : ﴿ قال سلام ﴾ والمعنى سلامٌ ثابتٌ ودائمٌ عليكم أو عليكم سلامٌ وأمنٌ وطمأنينة . ودليلاً على كرم إبراهيم عليه السّلام ذهب سريعاً في لطفٍ وخُفْية فأتى ضيوفه بعجلٍ حنيذ مشويّ على الحجارة المُحماة .

فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

نكرهم : يقال : نكِرْتُ الشّيء أَنْكَرُه وأنكرته أُنْكِرُه بمعنًى واحد[1] والإنكار ضدّ العِرفان[2] .

وأوجس منهم خيفة : أحسّ في نفسه منهم خيفةً وأضمرها[3] .

فلمّا رأى إبراهيم عليه السّلام أيدي ضيوفه لا تصل إلى الطّعام ولا تمتدّ إليه أصلاً ولم يكن عليه السّلام يعلم أنّهم ملائكة جاءوا في هيئة البشر أنكرهم وانقبضت نفسه منهم وأوجس منهم خيفةً وأحسّ في قلبه خوفاً منهم لأنّ الضّيف الذي لا يأكل ينوي شرّاً في العادة . وقال الملائكة لإبراهيم عليه السّلام على الفور إنّا فريقٌ من الملائكة أرسلنا الله تعالى إلى قوم لوطٍ عليه السّلام . ولوطٌ هو ابن أخي إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام[4] .

وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

كان إبراهيم عليه السّلام مشغولاً بخدمة ضيوفه ، وكانت امرأته سارّة[5] قائمةً على رعاية شئون المنزل الذي طرقه الضّيوف وعلى خدمة ضيوف إبراهيم عليه السّلام زوجها ، ربّما من وراء السّتر[6] وتسمع كلام الرّسل وكلام إبراهيم عليه السّلام . وربّما ضحكت سارّة لغفلة قوم لوطٍ عليه السّلام عن العذاب الذي سيحلّ بهم دون أن يفطنوا له ، ودون أن يقلعوا

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « نكر » ٥٠٥ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٠ وتفسير ابن عطيّة ٧/٣٤٦ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٣ وتفسير ابن كثير ٢/٤٥١ .

(٦) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٤ .

عن غيّهم ، بل إنّهم ـ كما سيتبيّن ـ قد تمادوا في حرصهم على أن يأتوا في ناديهم المنكر . وكان ضحك سارّة توطئةً لتبشيرها بإسحاق ابنها ، ومن خلف إسحاق يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام . إنّ سارّة عجوزٌ عقيم ، وإنّ إبراهيم عليه السّلام شيخٌ كبير . ويشاء الله تعالى أن يهب لهما إسحاق . وأن يهب لهما في حياتهما كذلك حفيدهما يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام . والوراء في كلام العرب ولد الولد[1] .

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

يا ويلتا : يا : أداة نداء وتعجّب . ويلتا : منادى متعجَّب به مضاف منصوب ، وعلامة النّصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الألف المنقلبة عن ياء منع من ظهورها اشتغال المحلّ بالحركة المناسبة . والألف المنقلبة عن ياء في محلّ جرّ مضافٌ إليه[2] ويا ويلتا كلمة تقولها العرب عند التّعجّب من الشّيء والاستنكار للشّيء فيقولون عند التّعجّب ويل أمّه رجلاً ما أرجله[3] .

كان عمر سارّة ساعة البشارة تسعاً وتسعين سنةً فيما يقال ، وعمر إبراهيم عليه السّلام مائة سنةٍ فيما يقال[4] وقد جاءت لفظة عجوز في الآية الكريمة معبّرةً عن السّنّ المتأخّرة في حقّ سارّة المرأة العقيم ، كما جاءت لفظة شيخ معبّرةً عن السّنّ المتأخّرة في حقّ إبراهيم عليه السّلام . لذا كان ردّ الفعل عند سارّة شديداً : « يا ويلتا » وتعجّبها أكيداً : « أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً . إنّ هذا لشيءٌ عجيب » والبعل : الزّوج[5] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٥ .
(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٧/٢٧٤ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٦ .
(٤) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ١٢/٤٦ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٧ .

قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

إنّه حميد : إنّ الله محمودٌ في تفضّله عليكم بما تفضّل به من النّعم عليكم وعلى سائر خلقه[1] .

مجيد : ذو مجدٍ ومدحٍ وثناءٍ كريم[2] .

يقول الرّسل من الملائكة لسارّة التي تعجّبت أن تلد وهي العجوز العقيم وزوجها الشّيخ الكبير ويسألون : أتعجبين يا سارّة من أمر الله تعالى بأن تنجبا في هذه السّنّ المتأخّرة . إنّ الله تعالى لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ومن ذلك أن تنجب العجوز العقيم مثلك من الشّيخ الهرم مثل إبراهيم عليه السّلام . إنّ رحمة الله تعالى الواسعة قد شملتكم ، وإنّ بركة الله تعالى قد نزلت عليكم يا أهل بيت إبراهيم عليه السّلام ، ويا آل بيت النّبوّة . إنّ الله تعالى هو المحمود دائماً وأبداً على أفعاله ، وإنّ الله تعالى هو ذو المجد والكرم والمدح والثّناء دائماً وأبداً . سبحانه لا إله إلّا هو ولا معبود بحقٍّ سواه جلّ وعلا .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾

فلمّا ذهب عن إبراهيم الرّوع : فلمّا ذهب عن إبراهيم الخوف الذي أوجسه في نفسه من رسلنا حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه[3] .

وجاءته البشرى : بإسحاق[4] .

يجادلنا في قوم لوط : ظلّ يجادلنا[5] وأخذ يجادل رسلنا في شأن قوم لوطٍ عليه السّلام[6] وإنّما كان جداله الرّسل على وجه المحاجّة لهم[7] .

إنّ إبراهيم لحليم : كثير الأناة[8] .

أوّاه : الأوّاه الذي يُكْثر التّأوّه وهو أن يقول : أوّه . وكلّ كلامٍ يدلّ على حُزْنٍ يقال

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٧ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٧ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٧ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٨ .
(٨) الجلالين .

له التّأوّه . ويُعبَّر بالأوّاه عمّن يظهر خشية الله تعالى[1] .

منيب : الإنابة إلى الله تعالى الرّجوع إليه بالتّوبة وإخلاص العمل[2] .

فلمّا ذهب عن إبراهيم عليه السّلام الخوف الذي انتابه حينما لم تمتدّ أيدي ضيوفه من الملائكة إلى الطّعام وانصرف الفزع وحلّ الأمن والأمان ، وجاءت إبراهيم عليه السّلام البشارة بالولد وولد الولد أخذ عليه السّلام يجادل الملائكة الكرام في شأن قوم لوطٍ عليه السّلام خوفاً على ابن أخيه لوطٍ عليه السّلام وأتباعه من المؤمنين الكرام أن يشملهم عذاب الذين يأتون الذّكران من العالمين . جاء في هذا المعنى في سورة العنكبوت[3] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ولمّا جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبُشْرى قالوا إنّا مهلكو أهلِ هذه القريةِ إنّ أهلها كانوا ظالمين . قال إنّ فيها لوطاً . قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه وأهلَه إلّا امرأتَه كانت من الغابرين ﴾ ومعنى من الغابرين ، من الباقين في العذاب[4] . إنّ إبراهيم عليه السّلام كثير الأناة والخشية لله تعالى ، دائم الإنابة والرّجوع إليه عزّ وجلّ بالتّوبة وإخلاص العمل .

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦

أفاض إبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب في جدال الملائكة في شأن قوم لوطٍ عليه السّلام وأطال الخصومة في الدّفاع عنهم بباعث الحلم بهم والشّفقة عليهم فقالت له الملائكة الكرام : يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال في شأن القوم وكفّ عن الدّفاع عنهم : ﴿ إنّه قد جاء أمر ربّك ﴾ بعذابهم وهلاكهم . ومعروف أنّ جملة « جاء » تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب وعلى المجيء الفعليّ . إنّ الأمر بهلاكهم قد نفذ . ويبقى أن يحلّ بالقوم العذاب غير المردود ولا المدفوع عنهم . وإلى العذاب الذي سوف يأتي مستقبلاً يجيء القول : ﴿ وإنّهم آتيهم عذابٌ غير مردود ﴾ ومعروفٌ كذلك أنّ جملة « أتى » تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد . إنّ الأمر قد جاء فعلاً بهلاك القوم ، وإنّ العذاب سوف يأتي تنفيذاً للأمر من ربّ كلّ شيءٍ ومليكه جلّ وعلا .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « أوّه » ٣٢٥ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « نوب » ٥٠٨ .

(٣) الآية ٣١ ، ٣٢ .

(٤) الجلالين .

« قوم لوطٍ عليه السّلام يصرّون
على إتيان الذّكران فيجعل الله تعالى
عالي قراهم سافلها »
الآيات (٧٧ ـ ٨٣)

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

ولمّا جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم : ولمّا جاءت ملائكتنا لوطاً ساءه مجيئهم[١] وهم في أجمل صورةٍ تكون على هيئة شبّان حسان الوجوه ابتلاءً من الله وله الحكمة والحجّة البالغة[٢] .

وضاق بهم ذرعاً : وضاقت نفسه غمّاً بمجيئهم وذلك أنّه لم يكن يعلم أنّهم رسل الله[٣] والذَّرْع : مصدر ذرعت الثّوب والحائط وغيره[٤] بالذّراع العضو المعروف ، بالكسر من طَرَف المِرْفق إلى طُرَف الإصبَع الوُسْطَى والسَّاعِدُ وقد تُذَكَّر فيهما[٥] ويقال للرّجل تَعِده أمراً حاضراً : هو لك منّي على حَبْل الذّراع[٦] ويقال : هذا على حبل ذراعك كقولك : هو في كفّك . وضاق بكذا ذَرْعي نحو ضاقت به يدي[٧] ثمّ يقال : ضاق بهذا الأمر ذرعاً ، إذا تكلّف أكثر ممّا يطيق فَعَجَز[٨] .

وقال هذا يومٌ عصيب : هذا اليوم يومٌ شديدٌ شرّه عظيمٌ بلاؤه[٩] .

لمّا جاءت رسل الله تعالى من الملائكة لوطاً عليه السّلام في هيئة شبّانٍ حسان الوجوه خاف عليهم قومه الذين كانوا يأتون الذّكران من العالمين ولم يكن عليه السّلام يعلم أنّهم ملائكة كما لم يعلم إبراهيم عليه السّلام حقيقتهم أوّل الأمر . ولأجل ذلك ساء لوطاً عليه السّلام مجيئهم ، وضاقت بهم نفسه ، وتحمّل من الهمّ ما لا يطيق خوفاً عليهم أن يعتدي عليهم قومُه الذين يأتون في ناديهم المنكر على رءوس الأشهاد . وقال لوطٌ عليه السّلام توقّعاً لما سوف يرتكبه قومه الكافرون من حماقات : هذا يومٌ شديدٌ شرّه ، عظيمٌ بلاؤه . وقد كان .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٤٩ .
(٤) معجم مقاييس اللّغة : « ذرع » ٢/٣٥٠ .
(٥) القاموس المحيط : « ذرع » .
(٦) معجم مقاييس اللّغة : « ذرع » ٢/٣٥١ .
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ذرع » ١٧٨ .
(٨) معجم مقاييس اللّغة : « ذرع » ٢/٣٥٠ .
(٩) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٠ .

وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

يُهْرَعون إليه : الهاء والرّاء والعين : أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حركةٍ واضطراب[١] وهم يُهْرَعون إليه ، أي يُساقون[٢] وأُهْرِع الرّجل : ارتعد فَرَقاً[٣] يقال أهرع الرّجل من بردٍ أو غضبٍ أو حمّى إذا أُرْعِد وهو مُهْرَع إذا كان معجلاً حريصاً[٤] وقيل : أُرْعِدَت فرائصه خوفاً[٥] .

ولا تخزون في ضيفي : ولا تذلّوني بأن تركبوا منّي في ضيفي ما يكرهون أن تركبوه منهم . والضّيف في لفظ واحد في هذا الموضع بمعنى جمع . والعرب تسمّي الواحد والجمع ضيفاً بلفظٍ واحدٍ كما قالوا رجلٌ عدلٌ وقوم عدل[٦] .

أليس منكم رجلٌ رشيد : أليس منكم رجلٌ ذو رشد ينهى مَنْ أراد ركوب الفاحشة من ضيفي فيحول بينهم وبين ذلك[٧] .

وجاء لوطاً عليه السّلام قومه يُهْرَعون إليه ، ويسرعون نحوه ، وقد تمكّن منهم الاضطراب بسبب الحرص على اهتبال الفرصة وقضاء الشّهوة في تلك الطّريقة القذرة كعادتهم السّابقة في عمل السّيّئات وإتيان الذّكران . ويلاحظ مجيء جملة : « جاء » التي تفيد الوصول الفعليّ حيث لوطٌ عليه السّلام والرّسل من الملائكة . ويقال إنّ زوج لوطٍ عليه السّلام هي التي أعلمت قومها بضيف لوطٍ عليه السّلام[٨] .

قال لوطٌ عليه السّلام لقومه في الأسلوب اللّطيف الذي يدلّ على خلقه العظيم عليه

---

(١) معجم مقاييس اللّغة : « هرع » ٦/٤٧ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة : « هرع » ٦/٤٧ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة : « هرع » ٦/٤٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٠ .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رعد » ١٩٨ .
(٦) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٢ .
(٧) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٢ .
(٨) تفسير الطّبريّ ١٢/٥١ وتفسير ابن كثير ٢/٤٥٣ .

السّلام : ﴿ يا قوم ﴾ ويعرض لوطٌ عليه السّلام على قومه بناته أن يتزوّجوهنّ على سنّة الله تعالى وسنّة رسوله لوطٍ عليه السّلام فإنّهنّ أطهر لهم من إتيان الذّكران . وتجاه إصرار القوم يأمرهم لوطٌ عليه السّلام أن يتّقوا الله تعالى ، وينهاهم أن يخزوه في ضيفه بفعل الفاحشة بهم ولم يكن عليه السّلام يعلم أنّهم ملائكة مرسلون من ربّ العالمين . وفي أسلوب الاستفهام الإنكاريّ يسأل لوطٌ عليه السّلام قومه : أليس منكم رجلٌ واحدٌ ذو رشد يقف معي في محنتي مع قومي بسبب ضيفي ويمنعهم من فضحي في ضيفي !

قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

قال قوم لوطٍ عليه السّلام بكلّ وقاحةٍ وقباحة لقد علمت يا لوط ما لنا في بناتك من حقّ لأنّا لسنا أزواجهنّ ، ولا حاجة لنا بهنّ لأنّا لا نأتي النّساء ، وإنّك لتعلم ما نريد يا لوط من إتيان الذّكور .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

قال لوطٌ عليه السّلام متألّماً متحسّراً لو أنّ لي بكم قوّةً ذاتيّةً لدفعتكم عن ضيفي قسراً ، أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ أحتمي به ، وألجأ إلى عشيرةٍ قويّة تنصرني لكنت منعتكم بالقوّة ممّا تريدون ، وحملتكم على الطّريق القويم حملاً .

قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

إنّا رسل ربّك : أرسلنا لإهلاكهم(١) .

لن يصلوا إليك : وإلى ضيفك بمكروه فهوّن عليك الأمر(٢) .

فأسر بأهلك بِقِطْعٍ من اللّيل : فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقيّةٍ من

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٤ .

اللّيل . يقال منه : أسرى وسرى وذلك إذا سار بليل[1] .

طال دفاع لوطٍ عليه السّلام عن ضيفه ودفع قومه بكلّ ما وتي من طاقةٍ على الدّفع معنًى وحسّاً ، وعبّر عليه الصّلاة السّلام عن تمنّيه أن تكون لديه القوّة الذّاتيّة أو قوّة العشيرة لدفع هذا الخزي عن ضيفه . وهنا يفصح الملائكة للوطٍ عليه السّلام عن حقيقتهم كما أفصحوا من قبل لإبراهيم عليه السّلام قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك جلّ وعلا لإهلاك القوم وإنّهم لن يصلوا إليك بسوءٍ وأنت الواحد من البشر ، ويُفْهَمُ من ذلك ضمناً أنّهم لن يصلوا إلى ضيفه بسوءٍ وهم الجمع من الملائكة . ويأمر الرّسل لوطاً عليه السّلام أن يسري بأهله وأن يسير بهم بقِطْعةٍ من اللّيل[2] وبقيّةٍ منه وطائفة[3] وإنّما كان الخروج من المدينة في جوف اللّيل[4] لأنّ موعد العذاب في الصّباح . وإنّما كان حلول العذاب في صبيحة اليوم التّالي حتّى يتمكّن لوطٌ عليه السّلام بإرادة الله تعالى من مغادرة المدينة ليلاً .

وتنهى الملائكة لوطاً عليه السّلام وأهله أن يلتفت أحدٌ منهم وراءه حينما يحلّ العذاب بالقوم ويعلو صراخهم ، إلّا امرأة لوطٍ عليه السّلام التي كان هواها مع قومها وكانت موافقةً لهم على إتيانهم الذّكران من العالمين إلى الحدّ الذي يقال معه إنها هي التي نبّهت قومها إلى ضيف لوطٍ عليه السّلام من الملائكة[5] ويبيّن الملائكة أنّ العذاب الذي سيصيب القوم سيصيب امرأته التي يظنّ أنّها التفتت تعاطفاً مع قومها فأصابها بإرادة الله تعالى حجرٌ من السّماء[6] قضى عليها .

ويحدّد الملائكة الصّبح موعداً للعذاب ، ويقرّر الملائكة في أسلوب الاستفهام أنّ الصّبح قريبٌ وليس بعيداً . فعلى لوطٍ عليه السّلام أن يغادر المدينة على الفور لا على التّراخي . وقد طمس الله تعالى أعين الذين رادوا لوطاً عليه السّلام عن ضيفه وأعمى أبصارهم بين يدي حلول العذاب . جاء في سورة القمر[7] قوله تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبّحهم بُكْرَةً عذابٌ مستقرّ . فذوقوا عذابي ونذر ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٤ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قطع » ٤٠٨ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٧ : « قال ابن عبّاس : قوله : بقطعٍ من اللّيل قال : جرف اللّيل » .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٥ وتفسير ابن كثير ٢/٤٥٤ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٤ .

(٧) الآيات ٣٧ ـ ٣٩ .

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

جعلنا عاليها سافلها : جعلنا عالي قريتهم سافلها[١] واسم هذه القرية الكبرى سدوم[٢] وهي بلدةٌ من أعمال حلب[٣] .

من سجّيل : السّجّيل حجرٌ وطينٌ مختلِط ، وأصله فيما قيل فارسيٌّ مُعَرَّب[٤] وقيل : بل هو طين يُطْبَخ كما يُطْبَخ الآجرّ[٥] .

منضود : متتابع[٦] ويتبع بعضه بعضاً عليهم[٧] .

مسوّمةً عند ربّك : معلمةً عند الله أعلمها الله[٨] ومعلمةً عليها اسم من يرمى بها[٩] .

لمّا جاء أمر الله تعالى بهلاك قوم لوطٍ عليه السّلام وذلك بقلب قراهم رأساً على عقب بواسطة جبريل عليه السّلام[١٠] جعل الله تعالى عالي القرى سافلها وسافلها عاليها وأمطر الله تعالى عليها حجارةً من سجّيلٍ منضود وطينٍ مطبوخٍ كالآجرّ متتابع ، على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الأولى .

وتبيّن الآية الكريمة الأخرى أنّ تلك الحجارة عليها سيما أصحابها ومُعْلَمةٌ عليها اسم من يرمى بها . وتقرّر الآية الكريمة أنّ تلك الحجارة ليست من الظالمين ككفّار مكّة ببعيد ، فعلى كفّار مكّة أن يعوا هذه القصّة وأمثالها وأن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وإلّا كان أخذ الله تعالى لهم أكيداً والعذاب شديداً .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٥ وسدوم من خمس قرى انظر أسماءها في تفسير الطّبريّ ١٢/٦٠ .

(٣) معجم البلدان : « سدوم » .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سجل » ٢٢٤ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٧ .

(٦) الجلالين .

(٧) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٨ .

(٨) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٨ .

(٩) الجلالين .

(١٠) تفسير الطّبريّ ١٢/٥٩ .